

الفصل الثاني العصر الجاهلي

١

تحديد العصر

قد يتبادر إلى الأذهان أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة ، فهو يدل على الأطوار التاريخية للجزيرة العربية في عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده . ولكن من يبحثون في الأدب الجاهلي لا يتسعون في الزمن به هذا الاتساع ، إذ لا يتغلغلون به إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية ، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية ، وهي الحقبة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصها ، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي . ولاحظ ذلك الجاحظ بوضوح إذ قال : « أما الشعر (العربي) فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومهلهل بن ربيعة .. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له — إلى أن جاء الله بالإسلام — خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فماتى عام ^(١) . وهي ملاحظة دقيقة ، لأن ما قبل هذا التاريخ في الشعر العربي مجهول ، ونفس تاريخ العرب الشماليين يشوبه الغموض منذ قضى الرومان على دولتهم في بطرا وتدمر ، إلا بعض أخبار فارسية وبيزنطية قليلة وبعض نقوش عثر عليها علماء الساميات ، وتشير تلك النقوش والأخبار إلى إمارات الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة ومملكة كندة في شمالي نجد ، غير أن معلوماتنا عن هذه الإمارات فيما وراء القرن السادس الميلادي محدودة ، وهي إنما تتضح في العصر الجاهلي الذي نتحدث عنه ، إذ حصل إلينا العرب كثيراً من الأخبار عن تلك الإمارات وأمراءها الذين كانوا يستولون فيها على الحكم ، كما حصلوا إلينا كثيراً من

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ٧٤/١ .

الأخبار عن مدن الحجاز وخاصة مكة بيت الكعبة المقدسة ، وكذلك عن القبائل وما كان بينها من أيام وحروب .

من أجل هذا كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أى عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى ، وهو يخرج عن هذا العصر الذى ورثنا عنه الشعر الجاهلى واللغة الجاهلية ، والذى تكامل فيه نشوء الخط العربى وتشكله تشكلاً تاماً كما قدمنا فى غير هذا الموضوع . فذلك العصر المتميز الواضح فى تاريخ العرب الشاهليين هو العصر الجاهلى .

وينبغى أن نعرف أن كلمة الجاهلية التى أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذى هو ضد العلم ونقيضه^(١) ، إنما هى مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والتزق ، فهى تقابل كلمة الإسلام التى تدل على الخضوع والطاعة لله جل وعز وما يطوى فيها من سلوك خلقى كريم . ودارت الكلمة فى الذكر الحكيم والحديث النبوى والشعر الجاهلى بهذا المعنى من الحمية والطيش والغضب ، فى سورة البقرة : (قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) وفى سورة الأعراف : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وفى سورة الفرقان : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . وفى الحديث النبوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذرٍّ وقد عير رجلاً بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » . وفى معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهلِ الجاهليينا

وواضح فى هذه النصوص جميعاً أن الكلمة استُخدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحمق . وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ، بالتأثر واقتراف ما حرّمه الدين الحنيف من موبقات .

(١) انظر مادة جاهلية فى دائرة المعارف الإسلامية .

الإمارات العربية في الشمال (الغساسنة - المناذرة - كندة)

ليس بين أيدينا وثائق توضح في دقة نشأة هذه الإمارات ، التي ظهرت على صفحة التاريخ إثر قضاء الرومان على تدمر ، فتاريخها قبل العصر الجاهلي أو قبل أواخر القرن الخامس الميلادي يحيط به الغموض ، ويظهر أن الرومان وحلفاءهم البيزنطيين اتخذوا من الغساسنة في الشام إمارة تحجز بينهم وبين البدو وغاراتهم وتساعدهم في حروبهم ضد الفرس ومن كان يؤيدهم من عرب المناذرة أو الحيرة في العراق . وبالمثل اتخذ الساسانيون ملوك الفرس من دولة المناذرة دعماً تحميمهم من غارات البدو وجنوداً تقف في صفوفهم في أثناء حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين والغساسنة . وبين الطرفين قامت إمارة كندة في شمالي نجد ، وكانت تدين بالولاء فيما يبدو لملوك اليمن الحميريين : ملوك مباح وذي ريدان ويمنات .

والغساسنة^(١) يعودون في رأي نسائي العرب إلى أصل يمنى ، فهم من عرب الجنوب الذين نزحوا إلى الشمال مع قبائل أخرى كثيرة أهمها حذام وعاملة وكلب وقضاعة . وقد أقاموا إمارتهم في شرقي الأردن ، ولم يتخذوا لها حاضرة بعينها فتارة تكون حاضرتهم الجولان أو الجابية ، وتارة تكون حلولا أو جلتي بالقرب من دمشق . وقد يكون في ذلك ما يدل على أنهم ظلوا بدواً يرحلون بنحيامهم وإبلهم وأنعامهم من مكان إلى مكان في تلك الأنحاء . ويقال إنهم أول نزولهم بالشام اصطدموا بعرب يسمون الضجاعة ، تغلبوا عليهم ، وأصبحوا سادة تلك المنطقة التي حلوا فيها ، وقرَّبهم الرومان منهم والبيزنطيون ومنحوهم ألقاباً رسمية من ألقابهم .

ويزعم مؤرخو العرب أن مؤسس سلالتهم جفنة بن عمرو مزيقياء ، ولذلك

لحواد على ١١٨/٤ وما بعدها ومحاضرات في تاريخ العرب لصالح أحمد العلي ٤٤/١ وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى (نشر دار الثقافة بيروت) ٤٤٦/١ .

(١) انظر في الغساسنة تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحزمة الأصفهاني ، وكتاب «أمراء غسان» لنولدكه ترجمة قسطنطين زريق وبندل جوزي ، وتاريخ العرب قبل الإسلام

يسمون آل جفّنة ، وأول ملك من ملوكهم يمكن الاطمئنان إلى أخباره من الوجهة التاريخية هو جبلة الذي غزا فلسطين سنة ٤٩٧ للميلاد ، وخلفه ابنه الحارث (٥٢٨ - ٥٦٩) ويسمى أحياناً الحارث بن أبي شمر ، وقد لعب دوراً مهماً في حروب الإمبراطور جستنيان ضد الفرس وعرب العراق ، فأُنعِمَ عليه بالإكليل ، واعترف بسيادته المطلقة على جميع العرب في الشام ومنحه لقب فيلارك ومعناه شيخ القبائل ، ولقب الطريق ، وهو أعظم الألقاب في الدولة البيزنطية بعد لقب الملك . وقد اشتبك مع المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة في حروب طاحنة ، وقع في أثنائها أحد أبنائه في قبضته سنة ٥٤٤ فقدمه المنذر ضحية للعزى . وثار الحارث لنسه في يوم حكيمة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤ إذ أوقع بالمنذر موقعة فاصلة قُتِلَ فيها ، وفي أمثال العرب : « ما يوم حليمة بسر » .

وتعد أيام الحارث بن جبلة أزهى أيام مرت بالغساسنة ، إذ امتد سلطانهم من بطرا إلى الرصافة شمالي تدمر . وكانوا قد دخلوا في المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي . وزار الحارث القسطنطينية . فاستقبل استقبالاً حافلاً ، واستطاع أن يقنع أولى الأمر هناك بتعيين يعقوب البرادعي أسقفاً على الكنيسة المونوفيسيتية السورية فنشر عقيدته في سوريا وبين الغساسنة . وخلفه ابنه المنذر (٥٦٩ - ٥٨١) فسار سيرته في تأييد العقيدة المونوفيسيتية التي لم تكن تتفق مع عقيدة البيزنطيين الرسمية ، كما سار سيرته في حروبه مع المناذرة ، فاشتبك مع قابوس ملك الحيرة منذ سنة ٥٧٠ في سلسلة معارك أهمها معركة عيّن أباغ وفيها انتصر عليه انتصاراً حاسماً تغنى به الشعراء طويلاً . وتدل الدلائل على أن خلافاً نشب بينه وبين البيزنطيين ، لعل مرجعه إلى تأييده للعقيدة المونوفيسيتية ، وربما خافوا منه أن يثور عليهم كما تارت الزباء على الرومان من قبل ، فحرموه من الإعانات التي كانوا يقدمونها إليه وإلى أبيه ، وقلبوا له ظهر الحين ، ولكنهم عادوا إلى مصالحتهم ، حتى إذا حانت لهم فرصة منه قبضوا عليه ونفوه إلى صقلية ، وثار أبنائه بقيادة النعمان عليهم ، غير أنه لقي نفس المصير حوالي سنة ٥٨٤ .

ومنذ هذا التاريخ تمزقت وحدة الغساسنة ، إذ تجزأت إمارتهم أجزاء ، على كل جزء أمير كبير أو صغير ، ويلمَعُ اسم الحارث الأصغر ، ويظهر أن جيوشه كانت

تشبتك مع القبائل النجدية في حروب دامية ، وقد أسرف في إحداها شأساً أخا علقمة ابن عبدة الشاعر التميمي المشهور ، فرحل إليه يمدحه^(١) رجاء أن يفك أخاه من أسره ، ونراه يذكر في مديحه معاركه وما كان ينزله بأعدائه من خسائر ، يقول :

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ صَوَاعِقُهَا لَطِيرَهْنَ دَبِيبٌ^(٢)
فَلَمْ تَنْجُ إِلَّا شَمْطَةً بِلِجَامِهَا وَإِلَّا طِمْرٌ كَالْقَنَاةِ نَجِيبٌ^(٣)
وَإِلَّا كَمِيٌّ ذُو حِفَاظٍ . كَأَنَّهُ . بِمَا ابْتَلَّ مِنْ حَدِّ الظُّبَاتِ خَضِيبٌ^(٤)
وَأَنْتَ أَزَلْتَ الْخُنْزُورَانَ عَنْهُمْ بِضَرْبٍ لَهُ فَوْقَ الشُّمُونِ دَبِيبٌ^(٥)
وَأَنْتَ الَّذِي آثَرَهُ فِي عَدُوِّهِ مِنَ الْبُؤْسِ وَالنُّعْمَى لَهْنُ نُدُوبٍ^(٦)

وكان لابنيه النعمان وعمرو جيوش قوية ، تجوب نجداً والصحراء الشمالية وتدين لها القبائل بالطاعة ، ويظهر أن جيوش عمرو اشتبكت في حروب مع بني أسد وبني فزارة ، ووقع كثير من أسرى القبيلتين في يد عمرو ، فقصده النابغة الذبياني يمدحه متوسلاً إليه في فكأكهم ، فأكرمه ، كما أكرمه أخوه النعمان ، ودبج فيهما مدائح كثيرة ، لعل أروعها قصيدته البائية التي يقول فيها^(٧) :

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفَهُمْ بِهِنَ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ

الفرس التحفزة للوثوب ، شبهها بالقناة في الضمور .

(٤) الكمي : الشجاع ، والظباة : جمع ظبة وهي حد السيف ، وخضيب : مصبوغ بالدماء .

(٥) الخنزورة : الكبر ، وشؤون الرأس : ملتحق عظامها .

(٦) ندوب : جروح .

(٧) مختار الشعر الجاهلي لمصطفى السقا (طبع الحلبي) ص ١٥٩ .

(١) يذكر أكثر الرواة أن علقمة إنما قصد بقصيدته الحارث بن جبلة (انظر ديوان علقمة بشرح - الشتمري طبع الجزائر سنة ١٩٢٥ ص ٢٥) وراجع القصيدة في المفضليات . وقد دحض نولده هذه الرواية ذاهباً إلى أن القصيدة في مديح الحارث الأصغر . انظر جواد على ١٤٣/٤ .

(٢) صابت : مطرت ، يقول أصابها الصواعق فلم تقدر على الطيران فديت تطلب النجاة .

(٣) الشطبة : الفرس الطويلة ، والطمير :

وعمر وهو ممدوح حسان بن ثابت ، وقد كان ينزل به وبغيره من أمراء الغساسنة ، وله فيه مطولة مشهورة يقول في تضاعيفها^(١) :

أولاد جَفَنَةَ حول قَبْر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضّل
بيضُ الوجوه كريمة أحسابهم شَمُّ الأنوف من الطراز الأول

وعلى نحو ما كان ينزل به كان ينزل بجيلة بن الأيهم الذي لحق الفتوح الإسلامية ، وحارب في صفوف الروم ، ثم أسلم وعاد فتنصر في عهد عمر بن الخطاب ، ورحل إلى بيزنطة . ويقال إنه حين أسلم دخل المدينة في موكب حافل من حاشيته وكان يضع على رأسه تاج أجداده تزيينه لؤلؤلتان كانتا فيما مضى قرطين لأم الحارث بن جيلة .

وفي أخبار الغساسنة المتأخرين ما يدل على أنهم كانوا يصيبون حظوظاً من الترف والنعيم ، فقد وصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس جيلة بن الأيهم ، فقال : « لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة . . . وكان ينفذ إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشراب فُرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندي إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطنً بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ، يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف ، وفي الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه . ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلعت على ثيابه التي عليه في ذلك اليوم^(٢) » .

ويقابل الغساسنة في الشام المناذرة^(٣) في العراق ، وهم من لخم ، ويعود بها النسابون إلى أصل يمني ، هي وبعض قبائل عربية نزلت هناك مثل تنوخ . وقد

(١) ديوان حسان (طبعة ليدن) ص ١٦ .
(٢) أغاني (سامي) ١٤/١٦ .
(٣) انظر في المناذرة تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٥/٤ - ١١٧ ،
وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى
(الترجمة العربية) ١٠٧/١ ومحاضرات
في تاريخ العرب لصالح أحمد العلي
١٥/١ وما بعدها .

احتذى الفرس الساسانيون معهم سياسة الرومان والبيزنطيين أعدائهم التقليديين مع عرب الشام . وربما كان جذيمة الأبرش أهم ملك أسطوري ظهر في هذه الأنحاء قبل اللخمين ، ويقال إنه كان يعاصر الزباء ، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى اللخمي وهو رأس المناذرة . وتاريخهم أكثر وضوحاً من تاريخ الغساسنة ، وربما كان ذلك يرجع إلى أن ملوك الفرس دونوا تاريخهم ، فأخذ عنهم العرب ، على أن ابن الكلبي يزعم أنه استخرج تاريخهم من بيع الحيرة وأديرتها .

وكان هؤلاء العرب العراقيون ينزلون في الخيام أولاً ، ثم تحلوا إلى قرية في الجنوب الشرقي من النجف الحالية ، كانت تقع في منطقة خصبة يروها نهر الفرات ، وهي الحيرة (تحريف لكلمة حرثا في السريانية ومعناها الخيم أو المعسكر) وسرعان ما نصب عليها الساسانيون المناذرة ليحموهم من غارات البدو ويساعدوهم في حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين وأحلافهم من الغساسنة عرب الشام . ويقال إن سابور (٢٤١ - ٢٧٢) هو الذي نصب عمرو بن عدى ، وتتابع من بعده خلفاؤه من بيته ، وربما كان ابنه امرؤ القيس الذي عُثر على نقشه في الفخارة كما أسلفنا يدين بالولاء للفرس والروم جميعاً . أما من خلفوه فكانوا يدينون بهذا الولاء للفرس وحدهم . ومن أهمهم النعمان الأعور أو السائح ، وكان له جيش قوى يتألف من كتيبتين هما الشهباء والدوسر ، واشتهر بينائه قصرى الحورنق والسدير ، ونرى الملك الساساني الذي كان يعاصره وهو يزيدجرد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠) يرسل أكبر أبنائه إليه ، لينشأ في قومه ، وليتعلم الفروسية والصيد ، وهو بهرام جور . ولما توفي يزيدجرد أراد الفرس إقصاءه عن العرش فتدخل النعمان ، وأيده بجيش مكنه من استرداد عرشه ، فأعلى ذلك من شأن المناذرة والحيرة . وهياً لها موقعها في طرق القوافل أن كانت مركزاً مهماً للتجارة ، فعاش المناذرة معيشة يسودها غير قليل من الترف ، بسبب التجارة التي كانوا يشاركون فيها وبسبب ما كان عندهم من حياة زراعية . ومن غير شك يسبق المناذرة الغساسنة في الرخاء ، ولعل ذلك ما جعل حياتهم أكثر استقراراً بالقياس إلى غساسنة الشام ، كما جعلهم أكثر حضارة ورقياً .

وأزهى عصورهم عصر المنذر بن ماء السماء (حوالي ٥١٤ - ٥٥٤ م) وقد

ساعت العلاقات بينه وبين قبّاذ ملك الفرس في أوائل حكمه ، ولعل ذلك يرجع إلى أن قبّاذ اعتنق المزدكية واتخذها ديناً رسمياً للدولة وحاول أن يفرضها على المناذرة فأبى المنذر ، فعزله وولى مكانه الحارث بن عمرو أمير كندة ، ولكن الأمور سرعان ما تطورت فتوفى قبّاذ ، وخلفه كسرى أنوشروان وكان يكره المزدكية والمزدكيين ، فأعاد المنذر إلى حكم الحيرة ، ونشبت بينه وبين الحارث الكندى وأبنائه سلسلة حروب قضت عليهم جميعاً . وربما كان من أسباب القضاء عليهم استيلاء الحبش على اليمن وانحلال ملك الحميريين هناك ، منذ سنة ٥٢٥ . ومهما يكن فقد تحولت قبائل نجد وشرق الجزيرة إلى الحيرة ، فدان معظمها للمنذر بالولاء ، ويظهر أنه مدّ سلطانة إلى عُمان كما تحدثنا بذلك الأخبار . وقاد منذ عاد إلى عاصمته سنة ٥٢٩ حروباً طاحنة ضد الغساسنة والبيزنطيين كُتب له النصر في كثير منها ، ونستطيع أن نقف على مدى انتصاراته في هذه الحروب من معاهدة عُمّدت بين البيزنطيين والفرس سنة ٥٣٢ أدّوا له فيها ما أدّوه للفرس من أموال . واشتهر بين العرب بأن كان له يومان : يوم نعيم ويوم بؤس ، فكان أول من يطلع عليه في اليوم الأول يعطيه مائة من الإبل ، وأول من يطلع عليه في اليوم الثاني يقتله ، ومن قتله في هذا اليوم المشثوم عبيد بن الأبرص ، ويقولون إنه راجع نفسه ، فأقلع عن هذه العادة السيئة ، ويقال أيضاً إنه قتل - وهو ثمل - نديمين له ، فلما صحا من سكره وعرف ما قدمت يداه ندم وأمر ببناء صومعتين عليهما ، وهما الغمر يان اللذان يذكران في أشعار العرب . وقد يكون هذا كله من باب الأسطورة ، وربما كان الغريان نصيبين من الأنصاب التي كان العرب الوثنيون يهرقون دماء الأضحيات والذبائح عندها . وما زال المنذر يشن الحرب على الغساسنة حتى قتل في يوم حليمة كما أسلفنا .

وخلفه ابنه عمرو بن هند (٥٥٤-٥٦٩م) وينسب إلى أمه في بعض الروايات دير هند في الحيرة ، وربما كانت نصرانية ، أما هو فكان وثيقاً على دين آبائه ، وكان طاغية مستبدّاً ، وفيه يقول أحد الشعراء^(١) :

أبى القلبُ أن يَهْوَى السِّدِيرَ وأهله وإن قيل عيشُ بالسِّدِيرِ غريرُ

(١) أغاني (طبعة السامى) ١٢٦/٢١ .

به البَقُّ والحُمَّى وأَسَدُ خَفِيَّةٍ وعمرو بن هندٍ يَعْتَدِي وَيَجُورُ

ولقبه العرب بالحرِّق لأنه نذر أن يقتل مائة رجل من تميم حرقاً وبراً بنذره في يوم أواره بالجمامة . واشتبك مع تغلب وطيئ في بعض معاركه ، ويظهر أن سلطانه امتد على قبائل كثيرة في شرق نجد وشمالها وغربها ، وكان بحكم استبداده يتعرض له كثير من الشعراء بالهجاء ، وقصته مع طرفة والملتمس مشهورة . وينسب إليه شعر كان ينظمه ، وقد أصبحت الحيرة في عهده مركزاً أدبياً مزدهراً ، إذ كان يجزل العطاء للشعراء ، فوفد عليه كثيرون منهم عمرو بن قميئة والمسيب بن عَدَس والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم التغلبي الذي يقال عنه إن ابن هند لقي مصرعه على يده ثأراً لكرامة أمه ليلي حين أهينت في بيته .

وولى أمر الحيرة بعد عمرو قابوس ثم المنذر الرابع ، ولم تطل مدتهما ، وبذلك نصل إلى النعمان الثالث ابن المنذر الرابع المكنى بأبي قابوس (٥٨٠ - ٦٠٢) وقد نشأ في حِجْر أسرة مسيحية هي أسرة عدى بن زيد العبادي ، ولعل ذلك سبب تنصره فهو أول من تنصّر من ملوك الحيرة الوثنيين . وكان سلطانه يمتد إلى البحرين وعمان ، وكانت له قوافل تجارية أو لطائم تجوب الجزيرة . وسار سيرة عمرو بن هند في رعايته للشعراء ، فوفد على بابيه منهم كثيرون مثل أوس بن حَجْر والمنخل اليشكري ولييد والمثقب العبدى وحجْر بن خالد الذي يقول فيه ^(١) :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجد كمثل أبي قابوس حزمًا ونائلاً

وهو ممدوح النابغة الذبياني ، وله فيه غير قصيدة ، وحدثت جفوة بينهما ، بسبب وفود النابغة على الغساسنة ، وأرسل له بمجموعة طريفة من قصائده يعتذر إليه وهي من أجود ما خلّف الجاهليون ، وفي إحداها يقول :

نُبِّئتُ أن أبا قابوسٍ أوعدني ولا قرارَ على زارٍ من الأسدِ

وكان الشعراء يتعرضون له بالهجاء أحياناً وينالون منه ، على نحو ما نرى عند يزيد بن الحذاق الشنّي من بني عبد القيس ^(٢) وعبد قيس بن خُفاف البرجُميّ

(٢) انظر المفضليات (طبع دار المعارف) رقم ٧٨ ، ٧٩ .

(١) الحيوان ٥٨/٣ والمرزوق على ديوان الحماسة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٦٤٠ .

التميمي^(١) . ويظهر أن النعمان لم يكن سهل القياد ، ويقال إنه قتل عدى بن زيد فضاق به كسرى الثاني ملك الفرس واستدرجه إلى حاضرتة بالمدائن ، وألقاه في غيابة السجن ، ثم قتله ، ويقال إنه رمى به تحت أرجل القبيلة فمزقته لرباً . ولم يول الفرس بعده أحداً من هذا البيت فقد نصبوا على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي ، وثارَت قبيلة بكر حمية للنعمان على إياس والفرس وهزمتها شر هزيمة في يوم ذى قار . وبقيت الأمور مضطربة حتى استولى على الحيرة خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م .

واحتلت الحيرة وأمراؤها حيزاً كبيراً في أقاصيص العرب وأخبارهم وأشعارهم فطالما تحدثوا عن الغريبيين وقصرى الحوزرتى والسدير، وطالما قصوا عن أمرهم الحقيقيين والأسطوريين مثل جديمة الأبرش . ويظهر أن المناذرة عرفوا من تقاليد الملك أكثر مما عرف الغساسنة ، وكانوا أوسع منهم سلطاناً إذ دانت لهم بالطاعة اليمامة والبحرين وعمان وقبائل العراق وعلى رأسها بكر وتغلب وكذلك كثير من قبائل نجد وخاصة بعد انحلال مملكة كندة . وعلى نحو ما أكثر الشعراء في مدح النعمان بن المنذر وأسلافه أكثروا من استعظافهم حتى لا تغزوهم جيوشهم^(٢) وقد يشكون من ثقل الضرائب ومما كانوا يدفعون ويؤدون من الإتاوات في أسواق العراق وفي غير أسواق العراق^(٣) .

وكل الدلائل تدل على أن الحياة كانت مزدهرة في الحيرة قبيل الإسلام ، وكان أكثر سكانها من القبائل العربية ، وكان يجاورهم العباديون من النصارى ، ويظهر أنهم كانوا أخلاطاً من العرب وغير العرب . كما كان يجاورهم الأحلاف من بعض العرب ومن النبط : سكان العراق من بقايا الأكديين والآراميين ، وكانوا يحترفون الزراعة ، وكانت هناك جالية فارسية ، تمتهن بعض المهن والحرف ، ويظن أنه كان هناك بعض اليهود . وكانت الحيرة كما قدمنا سوقاً تجارياً كبيراً ، وكل ذلك أعدّ لأن تتحضر ، وأن تتأثر بالثقافة الهيلينية الفارسية التي كانت تعم في تلك الأنحاء .

(٣) المفضليات رقم ٤٢ البيت ١٦ - ١٧
وقارن مع رقم ٤١ البيت ١٧ .

(١) الحيوان ٣٧٩/٤ .
(٢) الأصمعيات (طبعة دار المعارف)
رقم ٥٨ .

وبين إمارة الحيرة وإمارة الغساسنة قامت إمارة ثالثة في شمالي نجد كان أمراؤها يدينون - فيما يظهر - بالولاء لليمن ، وهي إمارة كندة^(١) ، ويرجع النسابون بها - كما رجعوا بالغساسنة والمناذرة - إلى عرب الجنوب ، وقد ظلت شعبة كبيرة منها تقيم في مواطنها الأصلية بمحصرموت إلى أن جاء الإسلام . وعُثر على نقوش تؤكد قيام هذه الإمارة الكندية في القرن الرابع الميلادي .

وأشهر ملوكها في القرن الخامس حُجْرُ الملقب بأكل المرار ، وقد استطاع أن يفرض سيادته على القبائل الشمالية في نجد وأن يمد نفوذه إلى البمامة وتخوم إمارة المناذرة ، ويقال إن بكرًا وتغلب داننا له بالطاعة . وخلفه ابنه عمرو المقصور ، وقد يكون في هذا اللقب ما يدل على أن سلطانه كان محدوداً ، وفي عهده نقضت بكر وتغلب ولاءهما له ، ولم تلبث الحرب أن استعرت بين القبيلتين أربعين عاماً ، وهي حرب البسوس المشهورة .

وأعقبه ابنه الحارث ، وفي عهده بلغت كندة ذروة مجدها ، فقد خضعت له قبائل نجد ، ولحأت إليه بكر وتغلب فأصلح بينهما ، وأقام على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه معديكرب كما أقام على أسد ابنه حُجْرًا وعلى قيس عيلان ابنه سلمة ، وعقد محالفة بينه وبين إمبراطور بيزنطة ، ووجه همه إلى الإغارة على المناذرة وزوج أخته المنذر بن ماء السماء ، وانتصر في غير موقعة . ولم يلبث قباذ ملك الفرس أن خلع المنذر وعينه والياً على الحيرة كما مر بنا في غير هذا الموضع ، غير أن قباذ لم يلبث أن توفي ، فعاد ابن ماء السماء إلى الحيرة ، ويقال إنه أوقع بالحارث هزيمة نكراء ، قتل فيها وقتل معه أكثر من أربعين أميراً من بيته . ودس المنذر بين أبنائه ، فتحاربوا وسقط شرحبيل وسلمة في ميادين الحرب وجُنَّ معد يكرب ، وانتقضت قبيلة أسد على حُجْر أبي امرئ القيس وقد حاول أن يسترد ملك أبيه ولكن المنذر كان له بالمرصاد ، ففشلت محاولاته وباءت بالخذلان ، ويقال إنه رحل إلى إمبراطور بيزنطة يستعين به في محاربة المنذر خصمه ، غير أنه لم يعد

تاريخ العرب لصالح أحمد العلي ٦٨/١ وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ١١٤/١ وما بعدها .

(١) انظر في كندة وأمراؤها Olinder, The Kings of Kinda of تاريخ العرب قبل الإسلام لحواد على ٢١٥/٣ - ٢٧٣ ومحاضرات في

من رحيله ، فقد مات دون أمنيته ، وشعره يفيض بالحق على ابن ماء السماء وأصحابه الحيريين ، بينما يفيض شعر عميد بن الأبرص شاعر بني أسد بالسخرية منه وبيان عجزه عن استرداد ملك آبائه مع الوعيد الشديد والتهديد .

٣

مكة وغيرها من مدن الحجاز^(١)

في منتصف الطريق المعبد للقوافل بين اليمن والشام تقوم مكة في واد من أودية جبال السّراة ، تحفه الجبال الجرداء من كل جانب ، وقد وصفها القرآن الكريم بأنها « بوادٍ غير ذى زرع » . وهي تراءى لنا في العصر الجاهلي ممسكة بزمام القوافل التجارية ، كما تراءى لنا أكبر مركز ديني للوثنية الجاهلية . ويقال إنه كان يسكنها في غابر الأزمنة قبائل من جرهم وبقايا من الأمم البائدة ، ثم نزلتها قبيلة خزاعة اليمنية حين هاجر كثير من القبائل اليمنية إلى الشمال ، ولعلها نزحت إليها لتسيطر على هذا المركز التجاري المهم . ولا نصل إلى منتصف القرن الخامس حتى يظهر بها قصى ومعها قبيلة قريش فيستولى عليها ويخرج منها خزاعة . ولا يعرف بالضبط أصل قريش ، وهل هي من عرب نجد أو من العرب الأنباط الذين تراجعوا ناحية الجنوب أمام غزو الرومان لبلادهم . وقد دعم مكاتها غزو الأحباش المسيحيين لليمن ، فتحولت أفئدة العرب الوثنيين إليها ، وفزعت أرسقراطيتهم الشمالية والجنوبية إلى هذا المركز البعيد عن أعدائهم ، وحاول أبرهة والى الحبشة على اليمن أن يستولى عليها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ فباعت حملته بالفشل الذريع ، فزاد ذلك في تقديس العرب لها وإعظامها وعمدتها رمزاً لاستقلالهم وعزتهم وقوتهم ، إذ لم تدن لأى ملك أجنبي ، وفي ذلك يقول حرب بن أمية^(٢) :

أبا مَطَرٍ هَلُمَّ إِلَى صَلَاحٍ فَتَكْفِيكَ النَّدَامَى مِنْ قَرِيْشٍ

(١) وما بعدها ودائرة المعارف الإسلامية وكتاب مكة والطائف قبل الهجرة ، للامنس .
(٢) الحيوان للجاحظ ١٤١/٣ وصلاح هنا: مكة .

(١) انظر في هذه المدن تاريخ العرب قبل الإسلام ١٨١/٤ وما بعدها وصلاح أحمد العلي ص ٧٧ وما بعدها وفيليب حتى ١٤٤/١

فتأمنَ وَسَطَهم وتعيش فيهم أبا مطر هُدَيْتَ لخَيْرِ عَيْشِ
وتنزلَ بلدةً عَزَّتْ قَدِيمًا وتَأْمَنُ أَنْ يَزُورَكَ رَبُّ جَيْشِ

وقد هيا لها التصادم المستمر بين الفرس والروم أن تزدهر بها التجارة ، فقد كان الطريق بين العراق والشام مقللاً ، وكانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تهيبط فيها . وكانت قوافلها تجوب الصحراء العربية إلى الجنوب في اليمن وحضرموت وإلى الشرق في الحيرة وإلى الشمال حيث تذهب إلى بَصْرَى في الشام وإلى غزة ومصر . وفي الوقت نفسه كانت راعية الكعبة وأصنامها وأوثانها ، وبذلك كان أهلها أشرف العرب وكان كثير منهم يعترفون لهم بالسيادة ، يقول ابن الفقيه : « إن أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خَزَاعَةٌ وثقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحِلِّ إذا دخلوا الحرم ، وهم بعد أعزَّ العرب ، يتأمرون عليهم قاطبة » (١) وكانوا يأخذون منهم إتاوة تسمى الحرِيم إذا نزلوا في بلدهم (٢) كما كانوا يأخذون إتاوة من التجار الأجانب إذا ألما بهم ، وكان ينزلها بيزنطيون وفرس للتجارة (٣) يدل على ذلك الصحابي الجليلان : صُهَيْبُ الرومي وسلمان الفارسي .

وكل ذلك يؤكد مكانتها وزعامتها على العرب ، فهي بيت تجارتهم وبيت كعبتهم المقدسة ، فيها يقيمون أعيادهم الدينية ، كما يقيمون أسواقهم التجارية كسوق عكاظ ومجنة وذى الحجاز . ولم تكن أسواقاً تجارية فحسب ، بل كانت أسواقاً أدبية أيضاً ، تعرض فيها سلع الشعر ، فيتنافس الشعراء ويقوم بينهم المحكمون من أمثال النابغة فيحكّمون للمتفوق ببراعته . وبذلك هيأت لحركة أدبية واسعة النطاق ، سيطرت فيها لغتها بحكم مكانتها الدينية وتنقلها بتجارتها في أسواق العرب خارج ديارها ، فأصبحت لغة الأدب الرفيعة .

ولعل في هذا كله ما يدل على عظم شأنها في الجاهلية ، وقد زعم لامنس في

(٢) انظر O'leary, Arabia Before

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه (طبعة أوروبا)

Muhammad (London, 1927) P.184

ص ١٨ .

وراجع مروج الذهب للمسعودي (طبعة باريس)

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ وأخبار

١٤٨/٢

مكة للأزرق (طبعة أوروبا) ص ١٧٥ .

كتابه عنها أنها كانت جمهورية كجمهورية البندقية التجارية^(١) ، وقد وقف طويلاً عند مآلها ونظامها التجارى المعقد ، ومعروف أنه كان بها مآلاً يجتمع بدار الندوة ، وهو مجلس شيوخ مصغر ، لم يكن يدخله إلا من بلغ أربعين سنة ، وكانوا يختارون على ما يظهر حسب ثرائهم وخدماتهم التى يؤدونها وهم سادة بطونها فى البطاح وكانوا ينظرون فى شئونها التجارية والدينية . وكانت تشبه مصرفاً كبيراً ، به المكاييل والموازين والبيع الحاضر والمؤجل والربا وصنوف المضاربة المختلفة . واشتهر فيها بيتان بالثراء هما بيتا الأمويين والخزوميين ، وكان للأولين أكثر قافلة بدر ، ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأسها ، وفى الاشتقاق لابن دريد معلومات طريفة عن ثروات الخزوميين وكان منهم من يسمى ربّ مكة^(٢) . ولم يكن الثراء خاصاً بهذين البيتين فقد كان عبد الله بن جدعان وهو من تيسم ثرياً ثراء مفرطاً ، وشبهه بعض الشعراء بقيصر ، فقال^(٣) :

يوم ابن جدعان بجنب الحزورة كأنه قيصر أو ذو الدسكره

وكان كثير من العرب يرى سادة قريش فوق آل جفنة الغساسنة ، بل فوق كسرى وآل كسرى ، وكانوا يقصدونهم بالمديح طلباً للعطاء والنوال ، ومديح أميه بن أبى الصلت فى عبد الله بن جدعان مشهور .
وبهذا كله كانت مكة أهم مدينة عربية فى الجاهلية إذ كانت مثابة للعرب وأمناً . وكان مجتمعها يتألف من قريش البطاح الذين ينزلون حول الكعبة ، وهم : هاشم وأميه وخزوم وتيم وعدي وجُمح وسهم وأسد ونوفل وزهرة ، وكانوا أصحاب النفوذ فيها ، ومن قريش الظواهر الذين ينزلون وراءهم ومعهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالى ، والعبيد وكان أكثرهم من الحبشة ، ويظهر أنهم كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، ولعل مما يدل على كثرتهم أن هنداً بنت عبد المطلب أعتقت فى يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها^(٤) ، وكانوا يقومون على حرف ومهن كثيرة . ومن غير شك كان يعيش سادة قريش معيشة مرفقة ، بحكم ثرائهم واتصالهم بالفرس

مادة حزورة ٤٤٤/٢ . والحزورة : الرابية .

(١) Lammens, LaMecque, P.175

(٤) المحاسن والأضداد ص ٧٧ وقارن بالأغاني

(٢) الاشتقاق ص ٦٠ و٩٢ .

(٣) طبعة دار الكتب (١ / ٦٥) .

(٣) معجم ما استعجم للبكرى (طبعة السقا)

والروم ، ويقال إنهم كانوا يصيفون في الطائف ويشتون في جدة ، ونجد في سورة الزخرف استهزاء بمن ينشأ في الحلية والزينة^(١) . ويقال أيضاً إن عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم دُفن في حُلَّتَيْن قيمتهما ألف مثقال من الذهب^(٢) . ومن يقرأ أخبار قوافلهم التجارية يخيل إليه أن مكة كانت قافلة كبيرة مقيمة ، تخرج منها القوافل إلى الجنوب والشمال والشرق ، ودعاهم ذلك إلى أن يعقدوا معاهدات بينهم وبين القياصرة^(٣) والنجاشيين والأكاسرة^(٤) ، كما دعاهم إلى عقد معاهدات بينهم وبين القبائل التي كانوا يبرون بها في طرقهم التجارية^(٥) .

ولكن هذا جميعه ينبغي أن لا يجعلنا نبالغ مبالغته لامنس ، فنظن أن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية ، فمع نمو العلاقات التجارية والاقتصادية فيها كان مجتمعها قليلاً ، فهو لا يعدو اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض في حُلْف لغرض سدانة الكعبة من جهة والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى . ولا سلطان لعشيرة على عشيرة ، بل كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة عليها لأحد ، وكل ما هناك أن اشتراكهم في مصلحة واحدة خفف من غلواء هذه الحرية ، ولكنه تخفيف لا يخرج بنظام الجماعة القرشية عن النظام المعروف في القبائل الجاهلية ، ووجود مآلٍ فيها أو مجلس شيوخ لا ينقض هذه الحقيقة . إذ لم يكن عمله يعدو عمل مجالس القبائل ، فقد كان في كل قبيلة مجلس يتكون من رؤساء العشائر ، ينظر في شئونها حسب قوانين العرف والعادة ، ولكنه لم يقض على حرية الأفراد ، فقد كان كل فرد متمتعاً بحريته ، مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة . وهذا نفسه هو النظام الذي كان سائداً في مكة قبل الإسلام ، فللفرد حريته وللجماعة عليه حقوق لا تتناقض مع هذه الحرية .

وإلى الجنوب الشرقي من مكة على بعد خمسة وسبعين ميلاً تقوم الطائف على ارتفاع يبلغ نحو ستة آلاف قدم وسط رياض وبساتين تجعلها أشبه ما تكون بقطعة من رياض الشام ، وجعلها ارتفاعها طيبة الهواء ، فكان القرشيون كما قدمنا يصطافون فيها حيث يجدون كل الثمرات كما يجدون الحمر الصافية . وكانت

(١) سورة الزخرف ، آية رقم ١٨ .
 (٢) تاريخ اليعقوبي (طبعة أوربا) ١٣/٢ .
 (٣) اليعقوبي ٢٨٠/١ والطبرى (طبعة أوربا) ١٠٨٩/١ .
 (٤) اليعقوبي ٢٨٢/١ والطبرى نفس الصفحة السابقة .
 (٥) اليعقوبي ٢٨٠/١ .

تنزلها قبيلة ثقيف الوثنية ، وهناك قصة تزعم أنها من بقايا ثمود ، وربما كان لهذه القصة أصل صحيح ، وأن التموديين حين تقوضت إمارتهم في الشمال هاجروا إلى الطائف كما هاجر اللحيانيون إلى منازل هذيل بين مكة والمدينة ، وقد يدل على ذلك أننا نجد النسابين يذكرون من بطون هذيل بنى لحيان ، وكأنهم ظلوا يحتفظون في أحد بطونهم باسمهم القديم . ولم تكن حياة الثقفيين تختلف عن حياة القبائل البدوية النجدية في شيء سوى ما أتاحت له زروعهم وثمارهم من الاستقرار على نحو ما استقرت قريش في مكة .

ونمضي إلى شمالي مكة على بعد نحو ثلاثمائة ميل ، فنلتقى بيثرب التي ذكرها بطليموس في جغرافيته كما ذكرتها الكتابات المعينية ، وهي تقوم في واد خصب ، تكفه مرتفعات يعلو بعضها بعضاً ، وتكثر الآبار والعيون في هذا الوادي كثرة أتاحت له أن يصبح واحة جميلة تكتظ بالنخيل والأشجار والزروع ، مع الجو المعتدل ، إلا في بعض فترات الصيف ، إذ تشتد بها الحرارة ، ولكنها لا تبلغ حرارة مكة القاسية .

ويقال إن العمالة أول من سكنوا المدينة أو يثرب ، وظلوا بها حتى نزها اليهود في القرن الثاني الميلادي على أثر اضطهاد الرومان لهم في فلسطين ، والمظنون أنهم الذين سموها باسم المدينة (مدينتنا) وهو اسم آرامي . وقد ظلوا على دين آبائهم إلى أن جاء العرب هددى الإسلام الحنيف ، واتخذوا العربية في حياتهم اليومية ، وإن ظلوا يحتفظون بالعبرية في طقوسهم الدينية وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم لسانهم ولغتهم^(١) ، وظهر بينهم غير شاعر كان ينظم بالعربية مثل كعب بن الأشرف^(٢) .

وما زال هؤلاء اليهود مسيطرين على المدينة حتى وفدت عليهم قبائل الأوس والخزرج الأزدية من الجنوب ، فأصبحوا هم سادتها الحقيقيين ، وقد اتخذوا العربية الشمالية لساناً لهم ، وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة وأصنامها ، مثلهم مثل بقية العرب . ولم يكونوا يعتمدون على التجارة مثل المكيين ، إنما كانوا يعتمدون

النبوية لابن هشام وطبقات الشعراء لابن سلام ،
والأغاني ٩٧/١٩ ، ١٠٦ .

(١) انظر البلاذري (طبعة أوربا) ص

٤٧٤ .

(٢) راجع في شعراء اليهود بالمدينة السيرة

على زروع بلدهم وثمارها ، بينما كان اليهود يقومون على الحرف والصناعات ، وخاصة صناعة الأسلحة والأقمشة . ويظهر أن النصرانية كانت معروفة هناك ففي السيرة أن شخصاً كان بها يسمى عبد عمرو بن صيني خرج على الرسول وحاربه مع قريش ، وكان قد تهرب في الجاهلية ولبس المسوح^(١) .

وتدل دلائل مختلفة على أن حياة الأوس والخزرج لم تكن تختلف في شيء عن حياة البدو في الخيام ، مع أنهم سكنوا أطام المدينة . ومن أكبر الدلالة على ذلك أنهم كانوا يتحاربون على نحو ما تتحارب القبائل البدوية ، وأكبر الظن أن اليهود هم الذين عملوا على الوقعة ونشر العداوة والبغضاء بينهم ، حتى يشغلهم عنهم ، وكانوا يصنعون لهم الأسلحة التي استخدموها في تلك الحروب الدامية . وفي كتب التاريخ والأدب أيام ومواقع لهم كثيرة مثل يوم سمير ويوم حاطب ويوم السرارة ويوم فارغ ويوم الربيع ويوم البقيع ويوم معبس ومضرس ويوم الفججار ويوم بُعاث . وتحرجت الظروف تحرجاً شديداً بين الأوس والخزرج حتى غدا كأنه من المستحيل أن يكفوا عن هذه الأيام والحروب وكأنما تعاهدوا على الفناء ، لولا أن نزل بينهم الرسول صلى الله عليه وسلم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً إذ دخلوا في دينه الخفيف أفواجاً ، وتحولوا إليه يشدون أزره وينصرونه حتى أضاعت بتعاليمه الجزيرة العربية من جميع أطرافها ومسالكها ودروبها .

وكان لليهود في شمالى المدينة قرى خاصة بهم أشهرها خيبر وفدك وتيماء ، وما زالوا بها حتى أخرجهم عمر من الجزيرة فأصبحت عربية خالصة . والمظنون أن هؤلاء اليهود مثلهم مثل يهود المدينة نزلوا في هذه القرى حين اضطهدهم الرومان منذ أوائل القرن الثاني الميلادي ، واتخذوا العربية لساناً لهم ، وعبروا بها عن عواطفهم ، فجرى الشعر على السنة نفر منهم ، لعل أشهرهم السموئل صاحب حصن الأبلق بتيماء وكان معاصراً لامرئ القيس ، ويقال إن أمه كانت عربية من غسان ، ولعل ذلك العرق فيه هو الذى أنطقه بالشعر العربي ، وكان أخوه شعبية شاعراً مثله . ومن المؤكد أن عرب الجاهلية لم يكونوا يطمثون إلى هؤلاء اليهود جميعاً ، ولذلك لم يؤثر في حياتهم الدينية فقد ظلوا بعيدين عنهم .

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ٢/٢٣٤ .

القبائل البدوية

يقسم النسابون هذه القبائل، بل قبائل العرب الشمالية جميعها، قسمين كبيرين: قسم عدنانى مضرى، هو عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر، وقسم قحطانى ينحدر من قحطان (ولعله يقطان المذكور فى الإصحاح العاشر من التوراة) وقد هاجر هذا القسم من الجنوب، من اليمن وحضرموت وعاش بين العرب الشماليين. وتشكك بعض المستشرقين فيما ساقه رواة الأخبار من هذا التقسيم وما يندرج فيه من أنساب القبائل الشمالية عامة^(١)، وقالوا إنه من وضع القرن الأول للهجرة وما كان من منافسات بين مكة التى نُسبت إلى عدنان والمدينة التى نُسب العرب فيها من الأوس والخزرج إلى قحطان، وتداخلت عوامل سياسية واقتصادية مكنت من انتشار فكرة هذا التقسيم، كما مكنت من ترتيب الأنساب العربية فى نظامها المعروف. ويبالغ بعض المستشرقين فىنكر جملة أن يكون عرب الجنوب قد هاجروا إلى الشمال، ويظن ذلك حديث خرافة.

ولكن من يرجع إلى الشعر الجاهلى يجد فيه الفخر باليمنية والقحطانية والعدنانية والمضرية، كما يجد فيه العصبية مشتتة بين القبائل على أساس الاشتراك فى الدم وفى أب واحد أو أم واحدة، ومن التحكم أن نجرى وراء ظنون لا دليل عليها. وحقاً اختلف النسابون فى أصل بعض القبائل وهل هى عدنانية أو قحطانية مثل خزاعة وقضاعة ونخشم ولكن اختلاف محدود، والرأى الصحيح أن هذه القبائل قحطانية. ومن الثابت الذى لا شك فيه أن القحطانيين هاجروا بتأثير ظروف اقتصادية وسياسية إلى الشمال، وأن هذه الهجرات بدأت منذ أزمان مبكرة، فقد كان المعينون على ما يظهر يضعون حاميات فى طرق قوافلهم التجارية، ولما ضعفت الدولة الحميرية: دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات هاجر كثير من

من كتاب سميت:

Kinship and Marriage in Early Arabia.

(١) راجع فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام

لجواد صلى ٢٢٠/١ وما بعدها وتاريخ الأدب

العربى لبلاشير ٢١/١ وما بعدها والفصل الأول

الجنوبيين إلى الشمال ، وخاصة بعد سيل العرم الذى خرب سدَّ مأرب . ويؤكد ذلك أننا نجد للقبيلة الواحدة فروعاً وشعباً مختلفة في الجزيرة العربية ، فكندة التى هاجرت إلى الشمال وأسست لها مملكة أو إمارة في شمالى نجد كانت لا تزال بقيتها الكبرى تقيم في حضرموت حين ظهور الإسلام ، ونجد في أسماء رجالها نفس الأسماء الجنوبية مثل شرحبيل بن الحارث ومعديكرب أخيه ، كما مر بنا في الحديث عن إمارة كندة . وكانت عشائر من إياد لا تزال تنزل في شمالى نجران بينما يعمت عشائر منها حوض الفرات ، أما الأزدي فقد نوزعت عشائرها بين شمالى اليمن وعمان ، والمدينة حيث أقام الأوس والخزرج ، وشمالى الجزيرة في الشام حيث نزل بنو غسان^(١) . وفي هذا دلالة واضحة على أن هجرة الجنوبيين إلى الشمال لا يعثرها الشك . وهاجرت تنوخ إلى البحرين ، ثم استقرت في جنوبى العراق حيث أسست أهم عشائرها ، وهى نخم ، دولة المناذرة في الحيرة . ولما نزحت قبائل همدان من حضرموت إلى الجوف اليمنى بين مأرب ونجران هاجرت قبيلة طيء إلى الشمال واستقرت في جبلى أجبأ وسلمى . وهاجرت قبائل أخرى إلى شمالى الحجاز وانتشرت في بادية الشام وأهمها قضاة وبنهراء وجهينة وبيلى التى نزلت في مساكن ثمود وجذام وكتب وعاملة اللاني نزلن في حدود فلسطين وعُدرة التى نزلت بالقرب من تيماء ووادي القرى . ومن هاجر من الجنوب أيضاً خزاعة وكانت مستقرة قبيل الإسلام في منطقة مكة وبجيلة وكانت تنزل جنوبى الطائف .

ويقابل هذا القسم القحطاني اليمنى قسم عدنانى مضرى ، ومن أهم قبائله قريش في مكة ، وثقيف في الطائف ، وعبد القيس في البحرين ، وبنو حنيفة في اليمامة ، وتميم وضبة في صحراء الدهناء ، وبكر وعشائرها الكثيرة التى تمتد من الشمال الشرقى للجزيرة إلى اليمامة والبحرين ، ويرد إليها النسابون بنى حنيفة وبنى عجل وشيبان وذهل ، ثم تغلب وكانت تتوغل أكثر من بكر في شمالى الجزيرة صوب الشرق ، وكان يجاورها بنو النمر ، بينما كانت تنزل أسد في شمالى نجد وتنتشر عشائرها إلى تيماء . ومن هذه القبائل العدنانية أيضاً كنانة وهذيل بالقرب من مكة ،

(١) انظر مادة إياد والأزد في دائرة المعارف الإسلامية وكذلك مادة نختم .

وقيس عيلان في نجد ، وأهم قبائلها هوازن ، وسليم ، وعامر وعشائرها كلاب وعقيل وقُشَيْر ومزينة وبنو سعد ، وغطفان وفرعاها الكبيران : عبس وذُبْيَان . وفي المفضليات قصيدة طريفة للأخنس بن شهاب يحصى فيها منازل كثير من هذه القبائل (١) .

وهذه الأنساب التي قدمناها كان يؤمن بها العرب إيماناً شديداً ، وظلوا على هذا الإيمان في الإسلام ، فتكتلوا على أساسها في مجموعتين كبيرتين : مجموعة قحطانية يمنية ، ومجموعة مضرية عدنانية ، وكان التنافس شديداً بين الطرفين ، وكثيراً ما جُرَّ إلى منازعات في الكوفة والبصرة كما جر إلى حروب في الجيوش المقاتلة في أقصى الشرق بخراسان وفي أقصى الغرب بالأندلس ، فكانت تتجمع عشائر كل فريق حين تصطدم مصلحة عشيرة يمنية بمصلحة عشيرة مضرية ، وسرعان ما تنشبت بين الفريقين معارك دامية .

ومن المؤكد أن عرب الجاهلية كانوا يتمسكون بهذه الأنساب التي أجملناها وعندهم وإثماً أبناؤهم في الإسلام ، وهي تؤلف علماً واسعاً عند العرب هو علم الأنساب ، وكأنهم رأوا في النسب ما يراه نحن الآن في الوطن ، فكل قبيلة تؤمن بنسبها وتعز به وبأنها تعود إلى أصل واحد ، فهي من دم واحد ولحم واحد ، ومن أجل ذلك عبروا عن القرابة باللحمة كما عبروا عن عشائرتهم وفرعهم بالبطن والفخذ . وهذه القبائل جميعها المتبدية منها والمستقرة في مدن كحكة والحيرة كانت تتحد في نظمها السياسية ، وهي نظم قبلية ، تقوم على أساس القبيلة واشتراك أبنائها في أصل واحد وموطن واحد ، وهو موطن متنقل مع المراعى ، وكذلك اشتراكها في تقاليد وعرف تتسلك بهما تمسكاً شديداً . وكان الرباط الذي يوثق الصلة بين أفراد القبيلة هو العصبية ، وهي عصبية قبلية ، ليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام ، وحقاً تكونت عندهم إمارات في الشمال ، ولكنها ظلت تقوم على أساس العصبية القبلية ، وإن بدا في تضاعفها شعور ضئيل بالوحدة ، لا بين القبائل الشمالية فحسب ، بل بينها وبين القبائل الجنوبية ، فقد كان أمراء هذه الولايات من العرب الجنوبيين كما يقول رواة الأخبار والنسابون ، وإنما نقول

(١) المفضليات ، القصيدة رقم ٤١ .

شعوراً ضئيلاً ، لأن أصحاب هذه الإمارات لم ينفذوا فعلاً إلى فكرة الأمة العربية أو الجنس العربي بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد ، إنما كل ما هناك اتحاد قبلي ، له رئيس .

ومن الاتحادات التي كانت تجمعهم اتحادات الأحلاف ، ويُظنُّ أن هذه الاتحادات لعبت دوراً كبيراً في تكوين القبائل إذ كانت تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها ، يقول البكري : « فلما رأَت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس في الماء والكلاء ، والتأاسم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستضعاف القوى الضعيف ، انضم الدليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالمهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم »^(١) ومن القبائل التي تمثل ذلك خير تمثيل قبيلة تنوخ في العراق ، فقد انضم إليها وتلاشى فيها كثير من القبائل والعشائر العراقية^(٢) .

وبمجرد أن تدخل القبيلة في حِلْفٍ يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم ينصرونها على أعدائها ويردون كيدهم عنها في نحورهم . وقد تنفصل بعض قبائل الحلف لتنضم إلى حلف آخر يحقق مصالحها ، ومن ثم كنا نجد دائماً أحلافاً تضعف ، وتحل محلها أحلاف أخرى . وقبائل قليلة لم تدخل في أحلاف ، ولذلك سميت باسم جمرات العرب ، لما كان فيها من شجعان يكفونها في الحروب ، على أن هذا كثيراً ما كان يؤول بها إلى أن تهك في المعارك ، أما القبائل المتحالفة فكانت تهاب لخشونة مسّها . وأصل الحِلْفِ والتحالف من كلمة الحَلْفِ بمعنى اليمين الذي كانوا يقسمونه في عهودهم ، وكانوا يغمسون أيديهم في أثناء عقد أحلافهم في طيب أوفى دم ، وكانوا يقولون^(٣) : الدم الدم والهدم الهدم ، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شداً وطول الليالي إلا مداً ، ما بَلَّ بجر صوفة وأقام رَضوى في مكانه ، إن كان جبلهم رضوى وإلا ذكروا ما يجاورهم من جبال . وربما أوقدوا النار عند تحالفهم ، ودعوا الله على من ينكث العهد بالحرمان من منافعها ، ويقال إن قبائل مرة بن

(١) معجم ما استعجم للبكري (طبعة السقا) (٢) انظر مادة تنوخ في دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر الحيوان للجاحظ ٣/٤ .

عوف الذبيانيين تحالفت عند نار وذنوا منها حتى محشتمهم (أحرقهم) فسمى حلفهم باسم المحاش . ومن الأحلاف المشهورة في مكة حلف المطيبين وقد تعاقد فيه بنو عبد مناف وبنو زهرة وبنو تميم وبنو أسد ضد بنى عبد الدار وأحلافهم ، ويقال إنهم غمسوا أيديهم في جفنة مملوءة طيباً . وأكرم من هذا الحلف حلف الفضول وفيه تحالفت قبائل من قريش على أن لا يجذوا بمكة مظلوماً إلا نصره وقاموا معه حتى تُرد عنه مظلّمته . ومن أحلاف العرب المشهورة حلف الرّباب ، وهم خمس قبائل : ضبة وثور وعكّل وتيم وعدى ، وحلف عيس وعامر ضد ذبيان وأحلافها من تميم وأسد وحلف الحُمس بين قريش وكنانة وخزاعة .

وكان لهذه القبائل جديعاً المتحالفة وغير المتحالفة مجلس يضم شيوخ عشائرها^(١) وهو ندوتهم ، التي ينظرون فيها شئون قبيلتهم . وكان كل فرد يستطيع أن يحضره وأن يتحدث فيه ، ولم يكن له موعد معين ، وفي العادة كانوا يجتمعون مساء وكلما حُزب أمر أو ظهر ما يدعو إلى الاجتماع ، فيتناقشون ويتحاورون ، وقد يخاطبون ، أو يستمعون إلى بعض ما ينظمه شعراؤهم ، وفي أثناء ذلك يدلى ساداتهم بحكمتهم وتجاربهم في الحياة ، وإلى ذلك يشير زهير بن أبي سلمى إذ يقول في مديح هرّم بن سنان وقومه^(٢) :

وفيهم مقاماتٌ حسنةٌ وجوههم وأنديةٌ ينتابها القولُ والفعْلُ
وإن جثتهم ألفت حول بيوتهم مجالس قديشقى بأحلامها الجهل
وكانت قرارات هذه المجالس نافذة ، فجميع أفراد القبيلة تدعن لها ولا تشذ عليها .

وغالباً ما يتقدم شيوخ القبيلة شيخ كبير مجرب ، هو سيدها ، له حنكة وحكمة وسداد في الرأي وسعة في الثروة ، وهو الذى يقود القبيلة في حروبها ويقسم غنائمها ويستقبل وفود القبائل الأخرى ، ويعقد الصلح والمخالفات ، ويقم الضيافات ، غير أنه ينبغي أن لا يفهم من ذلك أنه كانت له أو لشيوخ القبيلة سيادة واسعة ،

(٢) ديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية)

(١) انظر في مجالس القبيلة وحقوق سيدها

وواجباته القسم الثالث من كتاب لامنس :

فسيادته رمزية ، وإذا بغى كان جزاؤه جزاء كليب التغلبي حين بغى وطغى على أحلافه من بكر ، فقتلوه ، مما كان سبباً في نشوب حرب البسوس المشهورة .

فالسيد في القبيلة إنما هو الشخص الألعى الذى حنكته التجارب ، وغالباً ما يرث سيادته عن آبائه ، حتى يتم له الحسب الرفيع ، وليس له أى حقوق سوى توقيره ، أما واجباته فكثيرة ، فلا بد فيه من الشجاعة والكرم والنسجدة وحفظ الجوار وإعانة المعوز والضعيف ، ولا بد أن يتحمل أكبر قسط من جرائم القبيلة وما تدفعه من ديات ، ولا بد أن يكون حلماً متسامحاً ، وإلى ذلك كله يشير معاوية سيد بنى كلاب حين يقول (١) :

إِنِّي امرؤٌ من عَصْبَةٍ مشهورةٍ	حُشِدٌ لهم مجدٌ أَشْمٌ تَلِيدٌ (٢)
أَلْفُوا أَبَاهم سِيداً وَأَعَانَهُم	كِرْمٌ وَأَعْمَامٌ لهم وجدود
إِذْ كلٌ حَيٌّ نَابَتْ بأرومةٍ	نَبَتِ العِضَاهُ فَمَا جُدٌ وَكسِيدٌ (٣)
نَعطى العشيـرة حَقَّهَا وحقيقتها	فِيهَا ونَغْفِرُ ذنِبَهَا ونَسود
وَإِذَا تحمَّلْنَا العشيـرَةَ ثِقَلَهَا	قَمْنَا به وَإِذَا تعودُ نَعودُ (٤)
وَإِذَا نَوَافِقُ جُرْأَةٌ أَوْ نَجْدَةٌ	كُنَّا ، سُمِّيَ ، بها العَدُوُّ نَكِيدٌ (٥)
بَلْ لا نَقولُ إِذَا تَبَوَّأَ جِيرةٌ	إِنَّ المَحَلَّةَ شِعْبُهَا مَكْدودٌ (٦)

وواضح أن السيد في رأى معاوية لا بد أن يكون شريف الأصل والأرومة ، من عشيرة لها مجد فسيح الفناء ، ولا بد أن يرعى حقوق هذه السيادة ، وهى الحلم والصفح عن السفهاء وكظم الغيظ مع العفو والمغفرة ، ولا بد له أن يبذل المال والنفس في جنائيات القبيلة وأن يسارع إلى النجدة والحرب وأن يكون كريماً مضيافاً ،

(١) المفضليات ، القصيدة رقم ١٠٤ .

(٢) الحشد : الذين يجتشدون ويجمعون للملمات ، والتليد : القديم .

(٣) الأرومة : الأصل ، العضاه : شجر صنم من أشجار البادية ، الماجد : ذو المجد ، والكسيد : الدون .

(٤) الثقل : الغرم والدية .

(٥) سمى : مرخم سمية ، وحذف ياء النداء .

(٦) الشعب : ما انفرج بين جبلين ،

مكدود : فى ضيق وشدة . يقول إنه لا يعتذر لأضيافه بما يلم به من شذائده .

إذا نزل به جار أضافه وأعانه وحفظ له كل ما يمكن من حقوق الجوار . وكان من أهم ما يقوم به السيد لإصلاح ذات البين في القبيلة ولتمُّ شعُها، مستعيناً في ذلك بشيوخها وأصحاب الشرف فيها . ودائماً لا بد له من استشارتهم ، بل لا بد له من أن يستمع إلى كل فرد من أفراد القبيلة ، فهم جميعاً أكفاء يتساوون في الحقوق . ومن أهم ما يدل على هذه المساواة نظام الإجارة ، وهي حق التوطن في القبيلة ، إذ كان لكل فرد فيها أن يجير من يشاء ، وإذا أجار شخصاً أصبحت قبيلته ملزمة به ، وأصبح له ما لأفرادها من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات .

وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها ، وعلى رأسها حق الأخذ بالتأثر ممن سولت له نفسه من القبائل الأخرى أن يعتدى على أحد أبنائها ، فكل فرد فيها يضعي لها بنفسه كما يضعي لها بماله ، فهي حياته وكيانه ، وهو مع اعتزازه بفرديته وشخصيته وحرية يعيش لها وداخل إطارها ، مدفوعاً في ذلك بعصبية شديدة ، وهي عصبية سيطرت على نفوسهم ، وقدسوها تقديساً كان أعظم من تقديسهم للشعائر الدينية ، فلك الشعائر تشركهم فيها قبائل أخرى ، أما شعائر العصبية القبلية فإنها خاصة بالقبيلة وأبنائها الذين يجمعهم دم واحد ونسب واحد . وربما تسامح الواحد منهم في دينه ، إذ لم يكن يهمه في كثير من الأحوال ، أما في العصبية فإنه لا يتسامح في أي واجب من واجباتها ، ومن خير ما يصور ذلك قول دُرَيْد بن الصَّمَّة (١) :

وما أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غَوَتْ غويمةٌ وإن ترشُد غزيرة أرشد

ففيه ورشده مرتبطان بعشيرته غزيرة ، فإن ضلت ضل معها وأمعن في ضلاله ، وإن اهتدت اهتدى معها وأمعن في هداه .

وكانت القبيلة من جانبيها تعطى لأبنائها عليها نفس الحقوق ، فهي تنصرهم في الملمات التي تنزل بهم ظالمين أو مظلومين ، فحسب أحدهم أن يستغيث فإذا السيوف مشرعة ، وإذا الدماء تتصبب على أتمه الأسباب . وقد تحولوا بسبب اختصاصهم على المراعى واتخاذهم الغزو وسيلة من وسائل عيشهم إلى ما يشبه كتائب حربية ،

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١١٢

وانظر المرزوق على الحماسة ٢/ ٨١٥ .

فكل قبيلة مستعدة دائماً للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر ، وهي دائماً شاكية السلاح حتى تحمى حماها ومنازلها وآبارها ومراعياها ، ولذلك كانت الشجاعة مثلهم الأعلى ، فداًئماً يفتخرون ببطولتهم وبعدهم من قتلوا في حروبهم مما يدور في أشعارهم ويدور معه اعتدادهم بسيوفهم اليمانية والهندية ، ولبعضها أسماء اشتهرت بينهم ، وكما يعتدون بسيوفهم نراهم يعتدون برماحهم وقسيهم ودروعهم وتروسهم وبيضايتهم أو خوداتهم ، وأشاد فرسانهم بالخيال لإشادة بالغة وسموها أسماء كثيرة .

٥

حروب وأيام مستمرة

لعل أهم ما يميز حياة العرب في الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء حتى لكانه أصبح سنة من سنهم ، فهم دائماً قاتلون مقتولون ، لا يفرغون من دم إلا إلى دم ، ولذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالتأر ، فهو شريعته المقدسة ، وهي شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية ، إذ كانوا يجرّون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرماهم . ولم يكن لأى فرد من أفراد القبيلة حق ولا ما يشبه الحق في نقض هذه الشريعة ولا في الوقوف ضدها أو الخروج عليها ، فما هى إلا أن يُقتل أحد منهم ، فإذا سيوف عشيرته مسلولة ، وتتبعها العشائر الأخرى في قبيلته ، توازرها في الأخذ بئرها ، ويتعدد القتل والتأر بينها وبين القبيلة المعادية ، وتتوارثان الثارات حتى يتدخل من يصلح بينهما ويتحمل الديات والمغارم ، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر وإلا بعد أن تأتى الحرب على الحرث والنسل ، أما قبل ذلك فكانوا يعدونها سبةً وعاراً ، وفي ذلك يقول عبد العزى الطائى (١) :

رقم ٤٢ البيت ١٥ والأصمعيات القصيدة رقم

٤٤ البيت ١ ، ٢ .

(١) حماسة البحرى (طبع بيروت) ص

٢٨ وانظر ٢٩ ، ٣١ والمرزوقى على الحماسة

٢١٥/١ - ٢١٦ وراجع المفضليات ، القصيدة

إذا ما طلبنا تَبَلْنَا عند معشِرٍ أبينا حِلاب الدُرِّ أو نشرب الدِّمَا^(١)
فهم لا يرضون بالدية ويرونها ذلاً ما بعده ذل أن يستبدلوا بالدم الإبل وألبانها ،
فالدم لا يشفيهم منه إلا الدم ، وكأنما أصبح سفكه غريزة من غرائزهم لا تزايلهم ،
فهم يطلبونه وهم يتعطشون إليه تعطشاً شديداً على شاكلة تأبط شراً إذ يقول^(٢) :
قليلُ غرارِ النومِ أكبرُ همِّه دمُ الثَّارِ أو يلقى كَمِيًّا مُسَفَعًا

فأكبر ما يهتم به وينصب له طلبُ الثَّارِ ولقاء بطل سفعت وجهه الهواجر .
وأكثر حروبهم كان يجرها نزاع بين بعض الأفراد في قبيلتين مختلفتين ،
إما بسبب قتل أو بسبب إهانة ، أو بسبب اختلاف على حد من الحدود ، وحينئذ
تشبك عشيرتا هؤلاء الأفراد ، وتنضم إلى كل عشيرة عشائر قبيلتها ، وقد تنضم
أحلافهما ، فتنتشر نيران الحرب بين قبائل كثيرة ، وصور ذلك شاعر الحماسة
إذ يقول^(٣) :

الشيء يبدهؤه في الأصل أصغره وليس يصلى بكل الحرب جانيتها
والحرب يلحق فيها الكارهون كما تذنو الصَّحاح إلى الجربى فتُعديها

فهي تبدأ صغيرة ضعيفة ، ثم تقوى وتستحکم وتعظم بمرور الزمن ، فتصبح لها
عدوى كعدوى الحرب ، لا يفلت منها راغب فيها ولا كاره ، فالجميع يصطلون
بئارها ، بل يترامون فيها ترامي القراش ، فهي أمنيتهم ومبتغاهم ، يقول زهير^(٤) :

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم طوال الرماح لا ضعاف ولا عَزَل^(٥)
فإن يُقتلوا فيُشتقى بدمائهم وكانوا قديماً من مناباهم القتلُ

فجميعهم يطرون إلى المستغيث بجيئهم ورماحهم ، وتدور رحى الحرب فيقتلون

(١) التبل : الثَّار ، وحلاب الدر : كناية

(٣) المرزوق ١/٤٠٧ .

عن الإبل التي تحلب وتشرب ألبانها .

(٤) ديوان زهير ص ١٠٢ .

(٢) المرزوق على حماسة أبي تمام ٢/٩٢٢

(٥) الأعزل مفرد عزل : من لا سلاح له ،

غرار النوم : قليله ، والكي : الشجاع .

وفزعوا : أغاثوا .

من أعدائهم ويشفون حقدهم ويقتل منهم أعداؤهم ويشفون غليلهم . يقول دريد ابن الصمة^(١) :

وإنا لِلْحَمِّ السيفِ غيرَ نَكيرةٍ ونُلحِّمه حيناً وليس بذي نُكْرٍ^(٢)
يُغارُ علينا واطرين فيُشْتَفَى بنا إن أُصِبنا أو نُغير على وترٍ^(٣)
قسَمنا بذاك الدهرَ شَطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شَطْرٍ

ومثلُ قبيلة دريد قبائلُ العرب جميعها ، فهم طعام السيوف ، يطعمونها أعداءهم ، ويطعمهم أعداؤهم لها في غير نكران، فهم دائماً واطرون موتورون ، وحياتهم مقسومة على هذين الحدين وإلى هذين الشطرين . ولم يكونوا يرهبون شيئاً مثل الموت حتف الأنف بعيداً عن ميادين القتال ، ميادين الشرف والبطولة ، حيث يموتون طعناً بالسيوف والرماح ، وحيث تتناثر أشلائهم وتأكلها السباع ، يقول الشنفرى^(٤) :

ولا تَقْبُرُونِي إنَّ قَبْرِي محَرَّمٌ عليكم ولكن أبشِري أم عامرٍ
فهو يمتنى أن لا يقبر ، وأن يترك بالعراء في ساحة الحرب تنوشه السباع ، ويبشر أم عامر وهي الضبع بجسده ، حتى يخلد في سجل قتلى الجاهلية المجيد . وكانوا يسمون حروبهم ووقائعهم أياماً ، لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً ، فإذا جتسهم الليل وقفوا القتال حتى يخرج الصباح . وأيامهم وحروبهم كثيرة ، وهي تدور في كتب الأدب والتاريخ ، ويقال إن أبا عبيدة المتوفى سنة ٢١١ للهجرة صنف في ألف يوم ومائتين منها كتاباً اعتمد عليه من جاءوا بعده ، ولم يصلنا هذا الكتاب ، وإنما وصلنا شرحه لنقائض جرير والفرزدق وفيه طائفة كبيرة منها . وألف فيها من بعده كثيرون أحصاهم ابن النديم في المقالة الثالثة من الفن الأول بكتابه الفهرست . وفي كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني وشرح حماسة أبي تمام للتبريزي منشورات منها كثيرة . وعقد لها ابن عبد ربه في العقد الفريد وابن الأثير

(٣) الوتر : الثار ، واطرين : قاتلين

ومسبين الوتر .

(٤) المرزوق ٤٨٧/٢ .

(١) المرزوق ٨٢٥/٢ .

(٢) نكيرة ونكر : نكران وامتراء ،

ونلححه : نلحمه اللحم .

في الجزء الأول من كتابه الكامل والنويري في نهاية الأرب فصولاً طويلة ، وكذلك صنع الميداني في الفصل التاسع والعشرين من كتابه مجمع الأمثال إذ تناول منها مائة واثنين وثلاثين يوماً ضبط أسماءها وذكر القبائل التي اشتركت في كل منها .

وتسمى هذه الأيام والحروب غالباً بأسماء البقاع والآبار التي نشبت بجانبها مثل يوم عَمِينَ أَبَاغ وكان بين المناذرة والغساسنة ومثل يوم ذى قار وكان بين بكر والفرس ويوم شِعْبِ جَبَلَة وكان بين عبس وأحلافها من بني عامر وذبيان وأحلافها من تميم . وقد تسمى بأسماء ما أحدث اشتعالها مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء .

ومن أيامهم المشهورة يوم خَزَاز وكان بين ربيعة واليمن من مَذْحِج وغيرهم ، ويوم طَخْفَةَ بين المنذر بن ماء السماء وبني يربوع ، ويوم أُوَارَة الأول بينه وبين بني بكر ويوم أُوَارَة الثاني بين ابنه عمرو بن هند وبني تيم ، ويوم ظهر الدَّهْنَاء بين بني أسد وطبي ، ويوم الكُّلَاب الأول بين بني بكر وعشائر من تميم وضبة بقيادة شرحبيل ابن الحارث الكندي وبين تغلب والنمر وبهراء بقيادة أخيه سلمة وأيام الأوس والخزرج ومر ذكرها في غير هذا الموضع ، ويوم حَوَزة الأول بين سُلَيْم وغطفان ، ويوم اللُّوى بين غطفان وهوازن ، ويوم الكلاب الثاني بين تميم وبني عبد المدان النجرانيين ويوم الوَقِيط بين تميم وربيعه وكذلك يوم جَدُود وذى طُلُوح والغبيط وزُبَالَة ومبايض والحقار ، ويوم الرَّحْرَحَان بين قيس و تميم وكذلك الصرَّام والمروت والنَّسَار ، ويوم الشقيقة بين ضبة وبني شيبان ، ويوم بُزَاخَة بين ضبة وإياد؛ ويوم دارة مأسل بينها وبين بني عامر . وكانوا لا يقتتلون في الأشهر الحرم ، ومع ذلك وقعت فيها بعض مناوشات تسمى بأيام الفِجَار بين كنانة وهوازن يومها الأول ، أما يومها الثاني فكان بين كنانة وقريش وبين بني عامر وتبعته ذلك أيام أخرى . وستقف قليلاً عند حرب البسوس وحرب داحس والغبراء لأنهما من أشهر حروبهم وأطولها زمناً .

أما حرب البسوس فقد اشتعلت بين قبيلتي بكر وتغلب في أواخر القرن الخامس الميلادي ، وكان سببها اعتداء كليب سيد تغلب - وكان قد طغى واشتد بغيه - على ناقة للبسوس خالة جَسَّام بن مرة سيد بني بكر ، إذ رمى ضرعها بسهم .

فاختلط لبنها بدمها . ولما علم جساس بما حدث ثار لكرامته ، وسنحت له فرصة من كلاب فقتله ، ودارت رحى حرب طاحنة ظلت - فيما يقال - أربعين سنة، فكثرت أيامها مثل يوم عُسَيْبَة وكان سجالات بين الطرفين . ويوم واردات وكان لتغلب على بكر ويوم قَصَّة (تحلاق اللحم) وفيه انتصرت بكر . ولما أنهكت الحرب الفريقين لجأ إلى الحارث بن عمرو الكندي ، فأصلح بينهما ، وأقام كما مر بنا على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه سلمة . ونمت في العصور الإسلامية أساطير حول هذه الحرب وبطلها التغلبي المهلهل أخى كليب ، وألفت عنه قصة شعبية باسم « الزير سالم » .

وأما حرب داحس والغبراء فكانت في أواخر العصر الجاهلي ، وكان السبب في نشوبها سباقا على رهان بين الفرسين . فسميت باسميهما . وكان قد أجمعا سيدا عيس وذبيان : قيس بن زهير وحذيفة بن بدر . وأوشك داحس أن يفوز . غير أن رجلا من ذبيان كان قد كمن له : فاعترضه ونفّره ، فعدل عن الطريق ، وبذلك سبقته الغبراء . وأبي قيس أن يعترف بهذا السبق وطُلب الرهان المضروب ، وحدث صدام بين الفريقين لم تلبث الحرب أن اندلعت على إثره ، وظلت سنوات طويلة حتى تدخل سيدان من ذبيان هما هرم بن سنان والحارث بن عوف المرّي ، فتحملا ديات القتلى . وبذلك وضعت الحرب أوزارها بين القبيلتين ومن كان قد انضم إليهما من الأحلاف ، فقد انضم عامر إلى عيس بينما انضمت تميم وأسد إلى ذبيان . وعلى نحو ما نمت الأساطير حول المهلهل بطل حرب البسوس نمت حول عنزة بطل هذه الحرب ، وكان من عيس ، فألفت عنه قصة شعبية مشهورة لا نبعد إذا قلنا إنها تحولت إلى إياذة كبرى للعرب وفروسيهم الرائعة .